الخطبة الثامنة والثلاثون

الإيثار

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْد للهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُه، أما بعد:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 59/ 9].

إن العَالَم يعيش في مادية عجيبة! والناس في أنانية متناهية، تهالُكٌ على هذه الحياة، وتفانٍ في الممتلكات، وركض وراء الشهوات، ومتع ولذات لا نهاية لها، ومتطلبات يومية وأمنيات.

تنافس دنيوي على المال والمتاع والشهوات لا نهاية له، فرقة بين الإخوة على إرث، محاكم وقضايا في أمور إرثية، حقد وكره وحسد وقطيعة رحم، هذا هو العالم اليوم، وهذا هو العالم قبل مجيء الإسلام، وهذا هو العالم في كل مرحلة من مراحل التاريخ عندما يخلو من القيم ومن الرسالات السماوية، وعندما يخلو من النخبة المؤمنة التي تحمل رسالة الله عز وجل.

الإيثار: عرفه العلماء بأنه إسقاط حظوظ النفس والعمل على إعانة الخلق، إن الإيثار هو فعل ما فوق الواجب عن طريق التطوع الذاتي لخير الآخرين ولسعادتهم.

والإيثار قضية صعبة، لأن النفس البشرية نفس بجبلتها أنانية مستأثرة بالخير لها، والإيثار هو تنازل عن هذه الأنانية وهو تفضيل الآخرين على الذات، ومن هنا تأتي الصعوبة. ولكن المؤمن يرى القضية من منظار آخر، إن الإيثار عنده ليس تنازلاً وليس خسارة، وإنما الإيثار هو ربح لأنه أعطى القليل نسبة لما سوف يأتيه من الله، فالحسنة بعشرة أمثالها إلى سبع مئة ضعف، والله يضاعف لمن يشاء، هذا المعتقد هو دينه وإيمانه ومسلكه.

والإيثار كما أسلفت: إسقاط حظ النفس عن حق وملك لها لإعانة الغير ولمصلحة الغير، فهذا يعني أن الذي يقوم بالإيثار قد قطع شوطًا كبيراً قبل أن يصل إلى الإيثار، هذا الشوط هو ترفعه عن الغش والكذب والخيانة والسرقة لأن كل هذا هو من باب الكسب الحرام، فأنا لا أستطيع الوصول إلى الإيثار إلا إذا ترفعت عن الكسب الحرام، لأن الإيثار هو إعطاء الآخرين من حقي ومن ملكي، فكيف أستطيع أن أعطيهم من حقي وكسبي، وحقي وكسبي هو حرام؟! لا يعقل ولا تصح المعادلة بهذا، فالمُؤْثِر لا يصبح مُؤْثِراً إلا بعد أن يكون طاهراً نظيفًا أمينًا، يعطي من حلال ويكسب من حلال ويتنازل عن حلال، لأنه مؤمن بأن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا.

فعن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود» رواه الترمذي، (فِنَاء) الدار، والجمع: أفنية.

فالإيثار مرتبة عالية وحيث أن رسول الله ﷺ هو كما قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع» م - د - عن أبي هريرة - مسند أحمد.

فرسول الله ﷺ في أعلى مراتب الإيثار، وكان من صفاته ﷺ: «أجود الناس بالخير

من الريح المرسلة» وفي البخاري ومسلم قالت السيدة خديجة رضي الله عنها فيه صلى الله عليه وسلم: «إنك لتصل الرحم، وإنك لتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق».

حُمِلَ إليه تسعون ألف درهم، فقسمها كلها، فما رد سائلاً حتى فرغ منها، وجاءه سائل فسأله فقال: «ما عندي شيء، ولكن اتبع علي، فإذا جاءنا شيء قضيناه»، فقال عمر رضي الله عنه: «ما كلفك الله ما لا تقدر عليه! فكره النبي ﷺ ذلك، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالاً، فتبسم النبي ﷺ وعُرِفَ البِشْرُ في وجهه وقال: بهذا أمرت». الموافقات في أصول الشريعة (2/ 55).

والإيثار أنواع:

1- إيثار بالنفس: أن يجود الإنسان بنفسه في سبيل أمر مهم أو إنسان مهم، أو في دفاع عن دين، المهم التضحية بالنفس، فهذا أبو طلحة رضي الله عنه وأرضاه ترس على النبي ﷺ يوم أُحد، وكان النبي ﷺ يتطلع ليرى القوم، وأبو طلحة يقول: لا تشرف يا رسول الله يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك، ووقى رسول الله ﷺ بيده فَشُلَّت، رضي الله عنه وأرضاه. (ترس على النبي ﷺ أي: حماه كما يحمي الترس صاحبه).

وفزع أهل المدينة ليلة نتيجة صوت قوي، فانطلق الناس باتجاه الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعًا، قد سبقهم إلى الصوت، وقد كان على فرس لأبي طلحة والسيف في عنقه، وهو يقول للناس: «لن تُراعوا» أي: لن تفزعوا، ومادتها: (روَّع) وكأنه يقول: أنا أحميكم، أنا أدافع عنكم، لن تُراعوا، لن تخافوا ولن تفزعوا طالما أنا بين ظهرانيكم صلى الله وسلم وبارك عليه.

وهذا أنس بن النضر رضي الله عنه جاء يوم أُحد مقبلاً إلى الموت، يشم رائحة الجنة من قبل أحد، فقاتل حتى قتل وفي جسده بضع وثمانون طعنة وضربة، وما عرفوه

إلا ببنانه من كثرة ما شُوّه، والمؤمنون في بدر والمؤمنون في كل الغزوات؛ إيثار ما عرفه التاريخ إلا بوجود المسلمين.

2- الإيثار بالأموال: عدِّد ما شئت واذكر من شئت، ابتداءً بالرسول الكريم ﷺ وخديجة رضي الله عنها وأبي بكر رضي الله عنه وقد تبرع بماله كله، وعمر رضي الله عنه وقد تبرع بنصف ماله، وعثمان رضي الله عنه بألف بعير بأحمالها وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بألف بعير بأحمالها وغيرهم وغيرهم... ترى العجب العجاب لأنهم آمنوا بوعد الله ورسوله، لأنهم كانوا أوثق بما في يدي الله مما في أيديهم، كانوا مؤمنين محتسبين، أبو الدحداح رضي الله عنه يعطي أرضه لرسول الله ﷺ، وذلك مما رواه أحمد والبغوي والحاكم عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله إن لفلان نخلة وأنا أقيم حائطي بها، فمُرْه أن يعطيني إياها حتى أقيم حائطي بها، فقال له النبي ﷺ: «أعطه إياها بنخلة في الجنة» فأبى الرجل، فأتاه أبو الدحداح رضي الله عنه فقال: بعني نخلتك بحائطي، قال: ففعل، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ابتعت النخلة بحائطي، فاجعلها له أعطيتُكَهَا فقال ﷺ: «كم من عذق (نخلة) رَدَاح (ثقيل) لأبي الدحداح في الجنة» قالها مراراً، فأتى أبو الدحداح امرأته فقال: يا أم الدحداح اُخْرُجي من الحائط؛ فإني قد بعته بنخلة في الجنة، فقالت: ربح البيع، ربح البيع يا أبا الدحداح رضي الله عنهم وأرضاهم.

لقد آمنوا حقـًا فكانت أفعالهم براهين ناطقة على ما في قلوبهم، سمعوا قول الله فأمنوا به وطبقوه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: 9/ 111]، نعم إنهم باعوا أنفسهم وأموالهم، سمعوا قول ربهم فآمنوا ووثقوا ولم يرتابوا أبداً.

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 2/ 261].

3- إيثار بالعلم يتعلمونه ويُعلمونه، فهذا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يَعْلَمُ أن عبد الله بن أُنَيْس رضي الله عنه يحدث حديثًا عن رسول الله ﷺ لا يعلمه جابر فأحب أن يسمعه من عبد الله، ولكن عبد الله في دمشق وجابر في المدينة، فيشتري جابر جملاً فتيًا ويسافر عليه إلى دمشق ليسمع الحديث، والقصة رواها البخاري في الأدب المفرد.

وهؤلاء علمائنا في كل الأمصار يقضون حياتهم في المساجد يتعلمون ويُعلمون، لا يأخذون مالاً ولا أجراً، إيثارٌ بالعلم، إيثار بالوقت، إيثار بالجهد، إيثار باللسان، إيثار وجُوْد بأسمى معانيه، قدوتهم رسول الله ﷺ، قدوتهم أنبياء الله حين قالوا لقومهم: قال تعالى: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء 26/ 127، 145، 164، 180، 109].

هذا ابن جدعان رجل جاهلي، ما أسلم، وما آمن، وما صدح بلا إله إلا الله محمد رسول الله، ولا ركع لله ركعة، ولا كان هَمَّه الجنة، ولكن كان من المروءة بمكان ومن الجُودِ بمكان، فما كان يرضى لأبناء قبيلته وعشيرته أن يكونوا جياعًا، فكان يضع الطعام في الصباح ويرسل مناديه فينادي: من أراد أن يأكل فليأت، وتأتيه المساكين فتأكل عنده، وإذا كان الظهر فعل مثل ذلك، فإذا كان هذا الجاهلي لا يقبل ولا يرضى لبني قومه الجوع، أفترضاه أنت يا مسلم؟! يا من آمنت بجنة الله، يا من سمعت وقرأت وحفظت قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: 34/ 39]. أين التطبيق؟ وأين التحقيق في الآيات؟

وأخرج ابن إسحاق عن عروة بن الزبير، قال: جلس عُمير بن وَهْب الجمحي مع صفوان بن أمية في حجر إسماعيل من الكعبة، بعد مصابهم وهزيمتهم في بدر، وكان عُمير هذا سيئًا ويؤذي رسول الله ﷺ بمكة وأصحاب النبي ﷺ يلقون منه عناءً وأذى، وكان ابنه وَهْب من بين الأسارى الذين أسرهم رسول الله في بدر.

فقال عُمير لصفوان: والله لولا دين عليّ ليس عندي قضاؤه، وعيال أخشى عليهم الضيعةَ بعدي لركبت إلى محمد ﷺ حتى أقتله، فإن لي فيهم علة (أي: أن هناك سبباً في ذهابي إلى المدينة): ابني أسير في أيديهم.

فقال صفوان بن أمية: دَيْنُكَ دَيْني أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجزُ عنهم، قال عمير: فاكتم عليّ شأني وشأنك، قال صفوان: سأفعل. ثم أمر عمير سيفه فشحذ له وسُمَّ، ثم انطلق حتى أتى المدينة، فرآه عمر بن الخطاب وقد رآه على باب المسجد متوشحاً سيفه، فقال عمر رضي الله عنه هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ما جاء إلا لشر، ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله هذا عدو الله ابن وهب قد جاء متوشحاً سيفه فقال ﷺ: فأدخله عليّ، قال: فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلببه بها، وقال لمن كان معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث فإنه غير مأمون، ثم دخل به على رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «أرسله يا عمر، اُدن يا عُمير» فدنا، ثم قال عُمير: أنعم صباحاً، فقال رسول الله ﷺ: «قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عُمير، بالسلام تحية أهل الجنة» ثم قال: «فما جاء بك يا عُمير؟» قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه، قال: «فما بال السيف في عنقك؟» قال عُمير قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئاً؟

قال ﷺ: «بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين عليّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمل لك صفوان بن أمية بدينك وعيالك على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك»، فقال عُمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا سول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام وساقني هذا المساق،

ثم شهد شهادة الحق فقال رسول الله ﷺ: «فقهوا أخاكم في دينه، وعلموه القرآن، وأطلقوا أسيره»، ففعلوا، وفرح المسلمون بإسلامه، وقال عمر: «لخنزير أحب إلي منه حين اطلع، وهو اليوم أحب إلي من بعض بني» أخرجه الطبراني وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

والشاهد من هذه القصة: أن أعداء الله يدفعون الأموال للنيل من الإسلام والمسلمين، فهذا صفوان بن أمية يتكفل بدَيْنِ عُمير بن وهب وأولاده كلهم حتى ينال من رسول الله، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: 8/ 36].

فأنت يا مسلم، أنت يا مؤمن، ألا تنفق في سبيل الله وفي سبيل الإسلام والمسلمين، إذا كان الكفرة يدفعون العشر من أموالهم، ألا تدفع أنت نصف العشر؟

الإيثار هو الذي أقام الإسلام ونشره، فبالإيثار خرج المسلمون من أوطانهم وديارهم لينشروا هذا الدين وليموتوا دونه، إيثار بالنفس، إيثار بالمال، إيثار بالزوجة والأولاد، إيثار بالأوطان والديار، إيثار في سبيل الله بكل ما تحمل الكلمة من معنى، إيثار بالراحة يقومون الليل، يتعلمون ويُعلِّمُون.

هؤلاء الأنصار رضي الله عنهم وأرضاهم يقول البلاذري: إنه لما أخذ رسول الله ﷺ أموال بني النضير قال للأنصار: «ليست لإخوانكم من المهاجرين أموال فإن شئتم قسمت هذه وأموالكم بينكم وبينهم جميعًا، وإن شئتم أمسكتم أموالكم وقسمت هذه فيهم»، فقالوا: اقسمها لهم يا رسول الله، واقسم لهم من أموالنا ما شئت، فنزلت الآية: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: 59/ 9]، فقال أبو بكر رضي الله عنه جزاكم الله معشر الأنصار خيراً.

وفي يوم اليرموك يروي ابن كثير: أن بعضًا من المسلمين الجرحى استسقوا ماء،

فجيء إلى أحدهم بشربة ماء، فسمع أخاه يقول: ماء، فقال: ادفعها إليه، فلما وصل إليه نادى آخر: ماء، فقال الثاني: ادفعها إليه، فرآه قد مات، فرجع إلى الأول، فرآه قد مات، فرجع إلى الثاني، فرآه قد مات، رضي الله عنهم جميعًا ورحمهم جميعًا، وهؤلاء الثلاثة كانوا عكرمة بن عمرو بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، والحارث بن هشام.

وكتب السير والمراجع ملأى من أخبار الإيثار، وهذا أكبر سر في انتشار الإسلام بهذه السرعة العجيبة، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. اللهم اغفر لنا وارحمنا وقنا شح أنفسنا، آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم